الطبيعة والإنسان
فى شعر محمود حسن إسماعيل

شـــهدت بدايات التجربة الشعرية عند محمود حسن إسماعيل غروب الكلاسيكية الشعرية العربية وشروق مدرسة أبوللو الرومانسية التى تأثرت بروافـــد نقدية وابداعية وافدة من الغرب. ولقد امتص هذا الشـــاعر رحيق عصر الإحياء الشـــعرى فاكتمل بناؤه اللغوى والعروضى ولكنه فجر – فى هذا الإطار الذى تحول على يديه إلى عاصفة شعرية – عالما غير مألوف من الصور الموغلة فى بعدها عن النمط التقليدى الســـاكن. واجتاح شعره خيال جامـــح وصفه الدكتور محمد مندور فيما بعد بأنه (خيال وحشـــى)، ولأن محمود حسن إسماعيل قد ولد فى صعيد مصر وفى بيئة ريفية خالصة فقد احتلت الطبيعة وجدانه بل نستطيع أن نقول إنه هو نفسه تحول إلى جزء من الطبيعة التى ولد فى أحضانها. لقد حمل شعر محمود حسن إسماعيل إلى الشـــعر العربـــى فى الثلاثينيات من القـــرن الماضى فى مصر على وجه الخصوص هزة عاتية فتحت فى شراينه دفقات عميقة وغزيرة من مشاهد ومعاناة الريف المصرى وحيرة الشـــاعر بين جمال الطبيعة الخلاب وبؤس الإنســـان الذى يصنع هذا الجمال الآســـر. ولقد جاء ديوانه الأول «أغانى الكوخ» نشيدا متصل المقاطع يدور فى رؤيته وبنيته وتجربته حول انصهار الشـــاعر فى الطبيعة واعتصار الإنسان حتى الشقاء فى الأكواخ التى تشيد من دمعها ودمائها وعظامها قوائم القصور وأبهائها الفسيحة.

صــدر ديوان «أغانـــى الكوخ» فى يناير ١٩٣٥م فكان بشــارة بميلاد الشــاعر وإضافة لموضوع الشــعر العربى فى هذه الحقبة التى كان يسيطر عليها شــعر المناسبات وحضور شــاحب لامرأة خيالية تحترف تعذيب الشــعراء. وبهذه البداية القوية ارتفع صوت الطبيعة أو بالأحرى صوت الريف المصرى فى قاعة العصر وحاضرة البلاد ليتدفق ســيل من القصائد حول الكوخ والفأس والسنبلة والغراب والساقية وزهر الفول وكنز الذهب الأبيض والفراش وأجراء الأرض والنخيل.

واكتســبت الطبيعة التى يصورها محمود حســن إسماعيل خصوصية موهبة الشــعر الجامحة وخصوصية الريف المصرى الذى يعبر عنه، ومن ثم نرى أن أهم قسمات هذه الطبيعة عنصران يبدوان وكأنهما على طرفى نقيض العنصر الأول هو وحشية هذه الطبيعة وجيشانها بصور من الحركة والفرح والحزن والموت تتبدى وكأن الشــاعر قد أحالها إلى كائن شــديد الانفعال والهياج يتمدد بين الســماء والأرض فى حالة تميل مرة إلى نشوة التصوف ومرة أخرى إلى تمرد الحس الجامح والعنصر الثانى هو ألفة هذه الطبيعة بما تحتوى عليه من مشاهد ترافق الإنسان فى كل ساعات نهاره وكأن هذه الطبيعة تمثل بيتا خاصا للإنســان الذى يســكنه ولعل قصيدة «الســاقية» من أبلغ الدلائل على هذا التناقض الحميم فى جسم الطبيعة حيث يؤســس الشــاعر رؤيته على المفارقة الدالــة على واقع يجمع بين عناصر الجحيم والنعيم فى مكان واحد، يقول محمود حسن إسماعيل:

ناحت فلا الزهر علــى عـــوده   ألقى عقود الطل مـــن جيـــده
ولا مغنى الطير فـــى وكـــره   رق لها وازور عـــن عـــوده

ولا رثى المطراب فـــى أيكـــه   من ساجع الـــروض وغريـــــده
والعاشق البلبل فـــى عشـــه   أسرف فى نجـــوى معاميـــــده
يختال فوق الغصن مستلهمـــا   وحى الهوى من روح معبـــوده
أقام للبستان عيـــد الهـــوى   فراح يلهو الروض فى عيـــده
لم يسمع النـــوح لمخفوقـــة   تشكو إلى الدهر أســـى قيـــده
خرساء لكن صوتهـــا صـــارخ   يذيب قلب الصخر من وجـــده

ولقد تتابع ولع الشاعر بالطبيعة التى منحها كل صفات الإنسان من التألم والغنـاء والحركة والحزن والموت والبـكاء والحب والصلاة، ففى ديوانـه الثانى «هكذا أغنى» يفرد جزءا هاما من الديوان لمقاطع شـعرية حـول موضوع «وطن الفأس» وفى هذه القصائد نعثر على المزج بين صورة الطبيعة وصورة الإنسان الذى يرعاها فهو يرسم صورة لهذا الريف الذى يسميه «جنة».

عربد الزهر من شذاها فأفشـــى   سر جناتـــه علـــى نفحاتـــه
والفراش الوديع يسبح فى الأيك   ويحسو العبير مـــن زهراتـــه
ومن الطير سجعـــة ورنيـــن   ومن النحل زفة فـــى رباتـــه
وهنا هدهد تولع فـــى الحقـــل   بظل يفـىء مــــن نخلاتـــه

الشـــاعر يعرض لمظاهر هذه الطبيعة من زهور وفراشـــات وطيور وهو يتميز عن غيره من شـعراء الرومانسية بهذا التخصيص للنباتات والطيور فـــى البيئـــة المصرية، كما نرى ولعـــه بزهرة القطن والفـــول وطائر أبى الفصـــاد والغراب والهدهد وهو يعهد بكل هذه المشـــاهد والحركات إلى ظهور الإنسان الذى يتوارى فى تواضع وشقاء وراء هذا العرس الاحتفالى

الكبير وهو يخلع على هذا الإنسان صفة لها دلالتها على تجرده وزهده فهو يعطى بلا بخل وهو فى عمله أقرب إلى العابد الذى يضحى من أجل أن يصون قدسية هذا الوجود هو ناسك كما يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

جنة نضرة الخمائل فى الريف نماها معذب فى حياته
ناسك فى الحقول هيمان بالأرض يجلى بتربها دعواته
حملت فأسه من الغيب سوا حير لعقل كامن من صفاته
حطب يابس يمر على الصخر فتزهو الورود فى جنباته

ثم يعطيه صفة أخرى قد لا تخطر على بال شاعر آخر حين يقول:

جنة برة الأفانين لفَّا ء نماها معذب فى حياته
شاعر فى الضحى يغنى فتصغى كل سوسانة على رابياته
سرق الطير شدوه حين فاضت خلجات الإيمان من أغنياته
وبكى النبت شجوه حين غنى وأذاع الشجون فى نبراته

لقد أقام الشاعر محمود حسن إسماعيل بين هذه الطبيعة – التى تتفرد بخصائص المكان «مصر» والزمان فى مطالع هذا القرن – وبين الإنسان الذى يعمرها علاقة فريدة هى علاقة تراسل وتواصل وحنان وهى علاقات خلقها الشاعر فى شعره حين أنطق الزهر وأبكى الساقية وأدخل الطيور إلى المعابد وأضفى على النخيل سمات الهيبة والجلال... هو يلجأ إلى تحرير الإنسان من خلال تحرير العلاقات بين عناصر الطبيعة وهو يولد من هذه العلاقات الجديدة قيما إنسانية واجتماعية وربما فكرية وفلسفية فهو يؤمن بالحب متمثلا فى العلاقة بين المرأة والرجل

بيــن ذاته والجمال ولكن حتى الحب يكتســب خصوصية المكان أيضا فهــو يربط بين الريف والعفة وبين المرأة والطبيعة وبين المرئى وما وراء الطبيعة. هو لا يسعى إلى الافتتان المجرد بالجمال بل يسعى بدافع من نزعة أخلاقية فى إنصاف المظلومين والاحتفال بالبراءة والطهر ونشدان المألــوف والحميم مــن العلاقات الروحية العميقة وهــو بهذا يفترق عن شعراء الرومانسية من معاصريه أمثال ناجى وعلى محمود طه، فقد كان بعيد الغور فى الكشف عن رؤية شعرية تلتفت إلى المكان والزمان وإلى مــا وراء الطبيعة أيضا؛ ولهذا يعد محمود حســن إســماعيل هو الحلقة القوية بين مدرسة أبوللو الرومانسية ومدرسة الشعر الحديث باتجاهاتها الرمزية والواقعية ومعطياتها الوطنية.. من هنا أيضا ترتكز رؤيته الشعرية على عنصر يتبدى من أهم العناصر الواقعية وهو الإنســان، وقد استطاع محمود حسن إســماعيل أن يمنح الطبيعة بعض صفات الإنسان وحاول أن يلحق الإنسان ببعض صفات الطبيعة.

❑❑❑